مشاكل البحث الميداني في القضية الفلسطينية

فارس المنصور

تلعب الشهادات الشخصية التي ترد في كتب السيرة (ذاتية أم غير ذاتية) والمذكرات والذكريات والتقارير الصحفية والرسائل الخاصة ، دورا أساسيا في تدوين التاريخ الذي هو بمجموعه لا يتألف فقط من شهادات الاشخاص البارزين ذوي الادوار القيادية ، وانما ايضا من شهادات أناس عاديين شاءت الظروف ان تضعهم وسط احداث مصيرية ، فكانوا على درجة كافية من الوعي والثقافة لتجعلهم يسجلوا ما شهدوه او شاركوا فيه.

ومما يؤسف له ان الشهادات الشخصية ما زالت نادرة في حقل القضية الفلسطينية ، مما دعا « شؤون فلسطينية » في عددها رقم ٢٦ (تشرين الاول ١٩٧٣) الى توجيه الكلمة التالية الى قرائها : « اننا نشجع بشكل خاص التعليقات والايضاحات والاضافات (وخاصة الشهادات الشخصية) على الموضوعات المتعلقة بتاريخ النضال الوطني الفلسطيني وبحرب ١٩٤٨ ذلك ان المصادر العربية عن هذين الموضوعين محدودة ومعظمها لا يزال غير مدون وغير مدقق » .

والواقع ان مكتبة القضية في جناحها العربي تعاني فقرا واضحا في الشهادات الشخصية والذكريات ، سواء كان ذلك على صعيد الاحداث،او على صعيد الشخصيات البارزة التي لعبت دورا فيها . فالمكتبة ما زالت تخلو من سيرة وافية لمناضل كبير مثل عبد القادر الحسيني ، مع أن عددا كبيرا من الذين عرفوه معرفة وثيقة هم احياء ، بل أن القارىء العربي يعجب عندما يجد ان الكتاب « يا اورشليم » الذي ألفه كاتبان غربيان متحيزان ضد العرب ، يحتوي على معلومات عن عبد القادر الحسيني وابراهيم ابو ديه وغيرهما من المناضلين لا توجد في أي كتاب عربي . اما ما نشر عن مناضلين اخرين مثل عز الدين القسام وسعيد العاص وحسن سلامه ، فلا يتجاوز بضع صفحات، علما بأن كل عام يمر ، يقل فيه عدد من عرفوا الشيخ عز الدين القسام الذي استشهد قبل اربعين عاما .

فاذا تركنا الاشخاص الى الاحداث ، وجدنا ان القحط يمتد اليها أيضا . مثلا: الوصف المفصل الوحيد للهجرة الجماعية الفاجعة لاهالي اللد والرملة في ذلك اليوم الاسود من تموز ١٩٤٨ ، نعثر عليه في كتاب لم يدونه قلم عربي . انه « الطريق الى بئر السبع » الذي ألفته الاديبة الارلندية اثيل مان . ومع أن هذا الكتاب الممتاز يستقي معلوماته من شهود العيان الذين عصفت النكبة بحياتهم ، ومع انه يرسم صورة صادقة لا يرقى الشك الى صحتها ، الا انه على كل حال رواية خيالية ، وليس كتاب تاريخ .

هذا كله يطالبنا بطرح السؤال التالي : هل مشكلتنا هي مشكلة باحثين ، ام مشكلة شهود يرفضون لسبب من الاسباب ، الادلاء بشهاداتهم ؟